

الأوبرا فن مركب يقدمه العرب بطريقة خاطئة

لبانة القنطار: الغناء الأوبرالي يحتاج إلى خيال خصب



تتدرج الفنانة السورية لبانة القنطار من عائلة لها روابط وثيقة مع الموسيقى العربية الكلاسيكية، فقارتها العائلية بأسطورة الغناء العربي أمال الأطرش (أسمهان) وأخيها فريد الأطرش كانت لها الدور الكبير في مسيرتها الفنية وفي رسم طموحها لتتخذ حذوها وتشق لها طريقاً خاصاً بها تستلهم فيه، وتطور الفكرة الموسيقية التي أودعها في أعمالها، وتبلور رؤيتها الموسيقية الخاصة من خلال الغناء الأوبرالي. في ما يلي حوار مع الفنانة نتعرف من خلاله معها على تجربة ثرية موسيقياً وأكاديمياً وإنسانياً.

● لندن - منذ طفولتها كانت لبانة القنطار قادرة على غناء أصعب المقطوعات والقصائد الغنائية لعمالقة المؤلفين. وكانت فترة صباها الأولى غنية بمشاركات فنية عديدة عبر مهرجانات غنائية في داخل سوريا وخارجها.

يتميز صوت القنطار عندما تغني الألسان العربية برخامة وعذوبة صوت مليء بالشجن، بالإضافة إلى مساحة صوتية كبيرة إضافة إلى قدرة تعبيرية تمنح من خلالها زخماً ورونقاً للمقامات الموسيقية العربية المتنوعة والمعقدة. وقد كتب عن صوتها وتجربتها كبار الباحثين الموسيقيين العرب.

احترفت الفنانة الغناء الأوبرالي وأحرزت نجاحاً منقطع النظير كأول مغنية أوبرالية في وطنها سوريا. ونالت العديد من الجوائز العالمية كالمركز الخامس في مسابقة الملكة إليزابيث عام 2000 والجائزة الرابعة في مسابقة بلغراد العالمية للغناء الأوبرالي، وجائزة الجمهور الأولى في المهرجان نفسه. وكان لها ظهور مكثف في عواصم أوروبية عديدة: بلجيكا، ألمانيا، فرنسا، هولندا، الدنمارك وإنجلترا.

بعد جولات موسيقية عديدة وإقامة طويلة في أوروبا، عادت القنطار إلى سوريا لتترأس قسم الغناء الأوبرالي، وعملت على تأسيس قسم الغناء العربي الكلاسيكي الذي اعتبر تأسيسه حدثاً وطنياً لكونه للمرة الأولى يُدرس الغناء العربي في أكاديمية متخصصة بفتون هذا الغناء وأسابيه وتقنياته. أسست فرقة الغناء العربي التي كان أعضاؤها من طلابها في المعهد العالي للموسيقى، وقد قدموا تحت إشرافها العديد من الحفلات الناجحة في بلدان الشرق الأوسط.

وتشاركت القنطار في أهم مهرجانات الغناء العربي، من بينها مهرجان الأغنية العربية في القاهرة (دار الأوبرا)، مهرجان قطر للموسيقى العربية، "مهرجان موسيقات" للغناء الشعبي والفلكلوري في تونس، و"مهرجان المرأة

تقني" في دمشق بدار الأوبرا، على مدى سنتين متواصلتين. وشاركت في "مؤتمر الموسيقى العربية (مبدعات)" في تونس للتحديث عن تجربتها الفريدة كأول مغنية عربية أتقنت الغناء الأوبرالي والغناء العربي، وتعتبر من الرائدات في عالم الموسيقى الأكاديمي العربي.

كما قدمت العديد من الحفلات الغنائية في الولايات المتحدة الأمريكية بـ"معهد الدراسات الشرق أوسطية" في واشنطن، حيث قدمت أمسية عرضت فيها مجموعة من الموشحات الأندلسية والقشود والأغاني الفلكلورية السورية، بـ"مسرح لينكولن"، في واشنطن، و"الكيندي سنتر" للمسرح العريق. ودعت للغناء على "مسرح متحف الأوغا خان" في تورونتو/ كندا في عمل موسيقي تحت عنوان "من سوريا مع الحب".

واشتهرت في العديد من الحفلات على مسرح "الكيندي سنتر"، والتي مزجت فيها الغناء العربي مع الغناء الأوبرالي في مجموعة أعمال سورية ومصرية وعربية. وشاركت مؤخراً في الحفل السنوي لجامعة الدول العربية في واشنطن.

وقد دعت القنطار لتقديم حفل غنائي في "مكتبة الكونغرس"، في مشاركة هامة للتعريف بالغناء التقليدي التراثي السوري، بالتعاون مع قسم الدراسات الشرق أوسطية.

كان للفنانة دور بارز في العمل المسرحي المهم الذي قدم على مسرح شكسبير العريق في العاصمة واشنطن (سالومي) من إخراج يائيل فاربر (yael Farber) وقدم العمل نفسه (سالومي) على المسرح الوطني البريطاني في لندن لمدة ثلاثة أشهر ومن خلاله قدمت الفنانة مزيجاً من الغناء التعبيري مازجة الغناء العربي التراثي مع الغناء الأوبرالي بجوارية أغنت

لطالما كان صوت أم كلثوم يدعشنا

الناس والفئات العمرية والاجتماعية المختلفة. والملاحظ تدريجياً، أن ارتداد حفلات الموسيقى الكلاسيكية بات أمراً متاحاً للفئات الاجتماعية المختلفة. ومما جعل هذا الفن أقرب إلى الناس ذلك الاهتمام المتنامي عبر الكثير من المبادرات التعليمية والعروض التي تمكن الجميع من الحصول على هذه الجرعة الراقية من الفن والإبداع، سناذكر بعضها من خلال ما خبرته شخصياً أثناء عملي في دور الأوبرا العالمية المختلفة.

لقد دأبت هذه المسارح على وضع يومين في الأسبوع ليتم فيهما عرض أوبرا مناسبة يحضره طلاب المدارس في منتصف النهار، حيث كانت لدينا عروض مخصصة لهم كل أسبوع.

يتم الاتفاق مع إدارات المدارس لتنظيم الحضور بشكل دوري. قدمنا العروض الأوبرالية في الهواء الطلق (مواقع أثرية) وتسنّى لأعداد هائلة من الحضور كل يوم على مدار أسابيع. قمنا بتخفيضات في أسعار البطاقات للطلاب والمسنين. وقامت قنصوات تلفزيونية بعرض الأعمال الموسيقية والأوبرا ونقلها بشكل دائم على مدار أربع وعشرين ساعة.

وما أريد قوله، إن هناك إرادة وفعلاً ومبادرات وتخطيطاً مستمراً يتم العمل عليه لبناء الإنسان جمالياً، فنياً، وحسياً. إنه عمل مؤسساتي بحث وليس عبارة عن مبادرات واهتمامات فردية كما يحصل في عالمنا العربي.

● **الجديده:** ألا تعتدين أن هناك صعوبات كبيرة، إن لم يكن من المستحيل أن ينتشر فن الأوبرا عربياً لأسباب تبدو أكثر من أن نحصها، وربما من بينها غربة الذائقة الموسيقية الفريدة والجمالية معا من هذا الفن؟

● **لبانة القنطار:** نحن لم نقدم هذا الفن وباقي الفنون العامة المؤثرة للناس بالطريقة الصحيحة المنهجية المدروسة حيث تختبر قبولهم أو رفضهم لها.

الكثير من الناس وربما في أقاصي القرى الصغيرة النائية سمع بموسيقى بيتهوفن "القدر" لأنها استخدمت كثيراً في أغراض إعلانية وترويجية لمواضيع مختلفة، لكنه لا يعرف أي شيء عنها؛ وهذا أيضاً تسحبه على مقطوعة "إلى ليس" (For Elise) لبيتهوفن أيضاً.

أو تلك الموسيقى الكلاسيكية التي استخدمت بعقربية في الأعمال الكرتونية للأطفال "توم وجيري" (Tom and Jerry) فأصبحت شعبية يعرفها الصغير قبل الكبير لأنها كانت تعرض كل يوم ويستمتع بها المتلقي دون التفكير بأنها موسيقى غريبة عن ثقافتنا ومسامعنا. إذن المشكلة ليست في المتلقي وإدراكه أو تقبله، وإنما في تعوده على الاستماع وتقديمها بشكل مستمر ودايم، مع بعض الشروحات التي تقربه شيئاً فشيئاً من العمل الفني وفروقه.

● **الجديده:** كيف يمكن قياس المسافة بين الغناء الأوبرالي أو فن الأوبرا عموماً والواقع الاجتماعي والثقافي العربي عموماً من خلال الحالة السورية؟

● **لبانة القنطار:** دعتي لأشير هنا إلى مفارقة لافتة لانتابنا، ففي عالمنا العربي هناك قدرات فنية وإمكانات هائلة في

جميع المجالات. لكن ولأسباب متعددة هناك عقبات ومعوقات كثيرة غالباً ما تكون سبباً في عدم ظهور الكفاءات والمواهب أو تحقيق نجومية الكلتية يحصل عليها فنانون ترعرعوا في بيئات تحققي بالمتميزين وتأخذ بيدهم ليكونوا قدوة ومثلاً أعلى للجيل الطالع.

الفنان العربي بشكل عام هو إنسان متقل بالهموم التي تفوق قدرته، محبط مشئت، يعيش في دوامة الفن من أجل الفن أو يبذو مطحوناً تحت مقولة "الجمهور عاوز كده" حيث مؤسسات ثقافية ومسارح لا كفاءة لها وغير مهنية تسعى إلى تعويم الهابط على حساب المتميز. نعم هناك أصوات ومواهب فنية هائلة، لكنها تعيش في بيئة غير حاضنة لهذا الإبداع، والأصح أنها طاردة له.

● **هناك أصوات ومواهب فنية هائلة، لكنها تعيش في بيئة غير حاضنة لهذا الإبداع، والأصح أنها طاردة له**

لكن ومن جهة أخرى، فإن عالم الغناء مليء بالمبدعين والمتميزين الذين يظهرون بشكل مستمر ويذهلوننا بمقدراتهم الصوتية وفهمهم العظيم، خصوصاً في عالم الأوبرا.

إن الأسماء الكبيرة في عالم الغناء العربي كام كلثوم واسمهان وماريا كالاس وجون ساترلاند وبافاروتي تستمد فرادتها من فرادة الظروف التي ظهرها خلالها، وخصوصية تجربتهم وامتلاكهم لقومات جامعة لعناصر المغني العظيم، إنهم مكون فريد من الذكاء والحضور والقدرة التقنية والتعبيرية والجسدية مع الإبداع والخيال والإحساس، هذه المكونات قلما تجتمع كلها في شخص واحد.

● **الجديده:** ريبط موضوع الأوبرا بالحالة والاهتمامات الشعبية السائدة، هل تعتبرين أن فن الأوبرا سيبقى غريباً عربياً لاعتبارات سوسيو ثقافية؟

● **لبانة القنطار:** من وجهة نظري إن الفنون المؤثرة عبر التاريخ الإنساني والتي شكلت دعائم وأساسات لأنماط متفرعة عنها جديدة ومبتكرة.. لم تات لتكون حركاً على جماعة دون أخرى، أو مجتمع دون آخر، أو لغة دون سواها. وبالذات هذا الإرث الموسيقي الرّمح من الأعمال الموسيقية الكلاسيكية والأوبرات التي جمعت كل الفنون معا في عمل واحد درامي.

صحيح أن وجودها وتطورها كان نتيجة عوامل وطبيعة حياة ثقافية واجتماعية ودينية مختلفة، لكنها تبقى إرثاً إبداعياً إنسانياً. ما زالت المؤسسات الثقافية في أوروبا والعالم تعمل بخطط منظمة ومدروسة لجعل هذا الفن في متناول الجميع ليصبح شعبياً ومتاحاً لجميع

والنصوص الجديدة الدنيوية خلق هذا الفن. ولعل أهم ما يميز الغناء الأوبرالي، هو صفته التعبيرية، فمن خلال هذا الصوت يجري تظهير أبعاد الشخصية الدرامية التي تمثلها في العمل المسرحي الأوبرالي، وذلك وفق دراسة طويلة ومعقدة سوف أساول تلخيصها هنا لكي يتلمس القارئ خطوات بناء المغني الأوبرالي على كافة الأصعدة وليس من الناحية التقنية فقط.

فالعناصر الأساسية لتقنيات هذا الغناء هي "الغنائية، اللفظ، التنفس، والسرعة في استجابة الصوت والحبال الصوتية" لكن كل هذه الأشياء لا تكفي، بل يجب استخدامها جميعاً للعمل على موضوع الأداء الفني وتحقيق التعبيرية في الأوبرالي.

ونحن كلما استمعنا إلى ماريا كالاس مثلاً، نلاحظ تحديداً هذه الصفة، والقدرة التعبيرية الرائعة والتي تسمى "بيلكانتو" (belcanto) وهي كلمة إيطالية معناها "الغناء الجميل ذو المهارات العالية".

فهي لم تكن بجاجة إلى حركات جسدية مبالغ فيها باستعمال يديها وملامح وجهها لتشرح لنا الشخصية التي تمثلها، إنها تستطيع من خلال تحكمها بصوتها وغناء البيلكانتو أن تأخذ معنا إلى صميم روحها.

على عكس بعض المغنين الذين يملكون أصواتاً قوية ولديهم القدرة على التحكم الصوتي في الانتقال بين الصوت الخفيض (Piano) أو الطبقة المرتفعة (Forte) ولكنهم يغنون النوتات الموسيقية فقط، ويضيفون لها كلمات أو مقاطع، لذلك في كثير من الأحيان ينتقل المعنى بين أغنية وأخرى من دون أن نستطيع تمييز الانتقالات، والسبب هو الاكتفاء بالغناء التقني الصرف.

يقول المغني الروسي العظيم فيودون شلابين إن "الغناء الأوبرالي يحتاج إلى خيال خصب"، فالغنية التي لا تمتلك خيلاً خصباً لن ينقذها شيء من العقم الإبداعي، لا الصوت الجميل ولا الشكل الجميل، فالخيال هو الحياة بالنسبة إلى الدور المؤدى، يجب أن تخيله مغنية الأوبرا بخفة، حالة شبيهة بالواقع تبدأ بصورة عامة ثم تصبها في التفاصيل الخاصة وتعابير الوجه والسكتات.

إن الغناء الأوبرالي هو القدرة على الخلق فوق خشبة المسرح، هي القدرة لتحريك مشاعر المستمع عبر نقل تلك الصور التي تكوّنت على المسرح بجمالها الفني، ومرونتها وقوة الانفعال الداخلي لها، وتلك القدرة على الانتقال السريع من صورة إلى أخرى في مختلف الأعمال.

● **المسافة الضائعة**

● **الجديده:** كيف يمكن قياس المسافة بين الغناء الأوبرالي أو فن الأوبرا عموماً والواقع الاجتماعي والثقافي العربي عموماً من خلال الحالة السورية؟

● **لبانة القنطار:** دعتي لأشير هنا إلى مفارقة لافتة لانتابنا، ففي عالمنا العربي هناك قدرات فنية وإمكانات هائلة في

لقد ارتبط اسم ماريا كالاس في ذاكرتي بداية دخولي في عالم الغناء الأوبرالي. وكان للاستاذ صليحي الوادي الفضل الكبير في نجاحي وتشجيعي على الاستمرار، خصوصاً عندما يلحظربما تلك النظرة النათئة التي تبحث عن أي تلمين بأن ما أقوم به هو ليس ضرباً من الخيال أو الأمانيت.

أهداني مرة شريط كاسيت سجله لي خصيصاً لتعرف على مغنية عظيمة اسمها ماريا كالاس، وقد قال لي "إن نبرة صوتك قريبة من صوتها، اسمعها باهتمام ولا حظي تلك القدرة التعبيرية الفريدة عندها". كانت هذه العبارة من أهم ما حفزني على الاستمرار والمتابعة، لقد كان الاستاذ صليحي الوادي بالنسبة إلينا هو المرجع والأب الروحي للموسيقى والموسيقين السوريين.

الواقعة الثانية كانت عندما كنت أغني في كنيسة اللاتين بدمشق كجزء من مشروع تعليمي بين المعهد العالي والكنيسة المذكورة خصوصاً وأن الكاهن (الاب لويس) كان مغنياً إيطالياً ومدرباً للكورال الكنسي، فبعد أن قدمت أغنيتي بمرافقتي على الأورغن، قال لي "إن صوتك يشبه صوت ماريا كالاس فليدكما نفس طبيعة الصوت الدرامية ومساحة الصوت والتعبير الغنائي".

يومها شعرت بسعادة غامرة خصوصاً أن هذه الشهادة أتية من مغن إيطالي وموسيقى مخضرم.

بعد ذلك، توالى الآراء والشهادات المشابهة من قبل مغنين عالميين وقادة أوركسترا عملت معهم، وأتذكر، الآن، بشيء من السعادة الاستثنائية ما صرح به المغني الكندي مارك أنطوان دراغون على إثر تقديمنا فناناً مشتركاً من أوبرا "لا ترافياتا" من أنه شعر أن ماريا كالاس كانت إلى جانبه تغني. وقد صرح بهذه الشهادة أمام الجمهور بعد انتهاء الحفل الموسيقي.

● **الجديده:** حديثنا عن تصورك الشخصي للغناء الأوبرالي، وعن مكانة وإمكانات حضور هذا الفن في ثقافتنا الموسيقية العربية؟

● **لبانة القنطار:** الغناء الأوبرالي من حيث الرفيعة هو أقصى درجات التعبير الصوتي، وهو، كما نعرف، مرتبط بالأوبرا التي هي فن مركب وجامع لضرورة الفنون كالسمرح والشعر والرقص والموسيقى والتشكيل فمن خلال هذه الفنون العريقة واتساع شريحة المهتمين بها في أوروبا وانتقالها من النخبة إلى عامة الشعب، استطاعت الأوبرا أن تكون انعكاساً للثقافة والطموح وتطلعات الفكر الراقى بشموليته وجمالية تعبيره.

فمن تمازج الألحان الكنسية وأساليب أدائها مع المواضيع

